الحيـــاة الزوجية
في نظر الاســـلام
للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكى

— ٢ —

خطبة الزواج

تحدثنا عن دعوة الإسـلام إلى الزواج ؛ لأنه الرباط الوثيق ـ أولاً ـ بين الأفراد فى محيط الجماعات الصغيرة ، ولأنه ـ ثانياً ـ الدعامة التى يرتكز عليها البِنَاء القوى فى تكوين شعوب ، وقبائل يعمر بها الكون ، وتؤدى رسالة البشرية بما يجرى على يدها من الإنشاء والإبداع والتعمير ، وإبراز ما أودع الله فى الكائنات من أمارات وجوده . وذلك هو مظهر الحياة الذى كان من أجله آدم خليفة فى الأرض عن ربه ، وكانت خلافته على هذا النحو إرثاً بين أعقابه إلى ما شاء الله

فإن يكن تكوين الجماعة القوية المنظمة هو الهدف الأهم الذى يرمى إليه الإسـلام من وراء الحياة الزوجية ، فمن شأن الإسلام أن يرشدنا إلى طريق الدخول فى حوزة هذه الحياة ، ومن شأنه أن يقيم لنا على جوانب هذه الطريق معالم لا يضل معها من استجاب للدعوة

ومن الحصافة ـ وقد فصل الإسلام ـ أن يأخذ المرء نفسه بالتبصر ، والأناة ، وتقدير الغاية ، حتى إذا أقدم أقدم عن بينة لا يشوبها تردد ، ولا يلاحقها ندم

وقد حدثنا الرواة أن الاتصال الزوجى على عهد الجاهلية كان على ضروب شتى ، وكانت نظمهم فى ذلك وليدة عرف قاصر مشوه ، وأخلاطاً من عادات موروثة ملفقة ؛ لذلك لم تخل وسائلهم فى الحياة الزوجية من أنواع معيبة لا تكفل سلامة النسل من الدخالة ، ولا تأتى بنظام للجماعة على النحو ولا قريباً من النحو الذى يتوخاه الإسلام

جاء الإسلام فعزف عما كان لدى الأعراب من الوسائل ، وعنى عليها ، إلا وسيلة واحدة فيها سمو بالمرأة عن الريبة ، وسمو بالرجل عن الطيش والرعونة ، وفيها صيانة للأنساب أى صيانة تلك وسيلة الخطبة التى تدور حولها آى القرآن وأحاديث الرسول ، وعليها جرى العمل بين سلف المسلمين ، وبين الخلف الذين لم يحسنهم أفن الرأى وانحلال العقيدة ، ولم ينزعوا إلى فوضى الجاهلية الأولى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

يقول الله تعالى : « الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ... » فهذا شق من آية كريمة ، يحدثنا — على أنسب الوجوه فى تفسيرها — بأن الخبيثات من النساء لا يستأهلن من الأزواج إلا الخبيثين ، فمن كرمت نفسه من الرجال ، وصان مروءته عن مواطن الذلة والهوان فبعيد عليه أن يجنح إلى خبيثة ساقطة يتخذها زوجة له . وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلا خبائث النساء ، فمن ربأت بها العزة ، وامتزج بها الشمم ، تحاشت أن تجعل نفسها فراشاً لرجل ساقط المروءة ، وضيع النفس ، هين الكرامة

فإذا ما يخل كل ذى كرامة من الجانبين بنفسه عن لوثة الاتصال بالخبيث — تهيأ له أن يكون مع من يدانيه شرفاً وطهراً ، ويناسبه أدباً وخلقاً ؛ وهذا ما تهتف به الآية فى شقها الثانى ، إذ يقول تعالى : « ... والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات » ففى هذا الشق إشادة بالنساء الطيبات ، وإغراء للرجال باختيارهن ، وكذلك إشادة بالطيبين ، وأغراء للنساء الطيبات باختيارهم أزواجا

فنحن نرى من هذا السياق حثاً قوياً « لكل من الرجل والمرأة على التنزه عن اختيار الوضيع قريناً له ، ونرى فيه حثاً قوياً على اختيار الطيب الزيجة ، فكلا الزوجين مرآة تتمثل فيها صورة صاحبه » فلينظر المرء : على أى شكل يحب أن يراه الناس ؟

ويقول تعالى : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ... » فهذا شق آخر من آية ثانية ، فيها تجريح مقذع للزانى ، حتى أنه فى الغالب لا يرغب أن يتزوج إلا من كانت على شاكلته ، أو كانت أخس منه ، وأبعد عن الإسلام إلى الشرك ؛ فهو لا يأنف من النساء كراثمهن العفيفات ، إذ هو لا يبالى المعرة ، ولا يراعى لنفسه ولا لقريته حرمة ، مادام يتخذ الزواج وسيلة إلى قضاء لبانته الجنسية . . . وفى هذا تنفير لذات العفاف أن ترضى عمن عرف بالدعارة زوجاً لها ، وإغما تتركه لزوجة من فصيلته الزوانى

أو المشركات إن استطاع ، وتنتظر من الرجال من تشرف بشرفه وتحظى بالحياة معه معافاة فى دينها وسمعتها . وكذلك الشأن فى المرأة الزانية « ... والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » فهى مُجرحَة مسخوطة ، ومبتذلة مستهجنة ؛ فما ينبغى لرجل عزيز على نفسه أن يرضاها ، وإنما لها من يشاكلها نزعة وخلقاً ، «وحرم ذلك على المؤمنين» . الكاملين فلم يبق من سبيل إلا أن يتجه الرجل فى خطبته إلى من تكون حرتاً نقياً له ، وتربة طيبة لبذور نسله ، وأن تتجه المرأة فى خطيبها إلى النبيل ، أو كرم الطبع ، ومحاسن الرجولة ؛ ليكون البناء بهما قوياً متماسكا ، فيسدا فراغاً فى بناء الجماعة الكبرى — الأمة — ويكون لهما — بجانب ما يتوفر من هناءة وطيب حياة — فضل الاشتراك فى تكملة الصفوف ، وتكثير السواد بما ينجبان من ذرية كريمة المنبت

وهكذا ينصح النبي (ص) إلى الخاطب أن يأخذ بالحزم ، ويتفرس فى المخطوبة ما ينى برغباته : من شكلها ودينها وأصلها ، وما إلى ذلك مما جبلت النفوس على التطلع إليه ، ليتوفر الرضا ، ويكون للمرء بنجوة من نزغات الطمع وخوالج النفس التى تحقّر ما لديه فيمد عينيه إلى غير ما يملك ، ثم لا يكون من وراء ذلك إلا استماضه لما فى حوزته ، واكتئابه لما حرم منه ، وهو مخدوع بالأمانى ؛ والأمانىّ والأحلام تضليل

يقول النبي (ص) : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها — زواجها — فليفعل »

وقال (ص) لرجل من أصحابه كان يخطب امرأة : « أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال (ص) : إذهب فانظر إليها »

وقال (ص) لرجل آخر فى شأن كهذا : «إذهب فانظر إليها ؛ فإنه أحرى أن يؤاثم بينكما »

يعنى — إذا رأيتها وأعجبتك كان ذلك أدعى لدوام الألفة بينكما . . . فإذا لم يستطع المرء أن ينظر ، لمانع قام فى سبيله ، فمن السنة أن يبعث من النساء من تستوضح له شأن المخطوبة ، وتتعرف له ما يعنيه من أمرها . وقد فعل النبي (ص) ذلك ، إذ رغب فى خطبة امرأة ، وأحب أن يعلم عنها ما يرغبه فيها ، أو يرغبه عنها ؛ فأرسل إليها امرأة ثقة ، وأمرها أن تنظر إلى قدميها ، وتشم رائحتها ... وإن يكن هذا حق الرجل فى خطبة المرأة ، فهو كذلك حق المرأة فى اختيار الرجل زوجاً لها ؛ لها أن تراه وتتفرس فيه ما يعجبها ، ولها أن يتحدثا ليقف كل منهما على ما بصاحبه من لباقة أو لكنة ، ومن نشاط الذهن أو خموده ... ولكن على أن يكون هذا الاختبار فى غير خلوة ، بل مع وجود محرم للمرأة . وإن تكرر هذا فليس فيه من حَرج إلى أن تطمئن نفس كليهما ، وللعرف شأنه فى تحديد هذا الاختبار بالقدر الكافى

وليس يدخل فى ذلك أن يجتمع الرجل بالمرأة فى جماعة من الرجال الأجانب ، فإن الحراسة المقصودة من وجود المحرم معدومة ؛ بل هذه من أشد أنواع الخلوة خطراً على حياة المرأة وعفتها ؛ فضلاً عما يجره إليها من الريبة وسوء الأحدوثة

كما أنه لا يدخل فى حدود الاختبار المباح أن يجتمع بالمرأة فى حضرة عدد من النساء . فإن انفراد النساء برجل واحد يعد فى الشرع من الخلوة المحظورة . ووجهة الإسلام واضحة فى ذلك ؛ فإن الأثر السيئ الذى ينشأ عن هذا الاجتماع لا يقف عند سمعة امرأة واحدة ؛ بل يتطاير شرره إلى هذا العدد من النساء جميعاً . والإسلام يدرأ الشر من أبعد طرقه ، ويحتاط له فى كثير من المبالغة ، حفاظاً على السمعة ، واستبقاء للشرف والكرامة ، وخاصة فيما يتصل بالأعراض . ولما كانت أسباب الرغبة فى المرأة كثيرة ، وتختلف باختلاف نزعات الرجال وميولهم ، بينها النبي (ص) أو بين أهمها وأولاها بالاعتبار فقال :

« تنكح المرأة — والنكاح فى كل ما نذكره معناه الزواج — لمالها ، وحسبها ، وجمالها ، ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » فهذه أهم الأسباب التى ينبغى أن تدور حولها الرغبة فى الزواج ، وهى الأسباب التى ترى الناس يلتمسونها فى الخطوبة ؛ والنبي (ص) يُقرنا على اعتبار تلك المزايا . غير أنه لما كان الدين عند الناس فى الموضع الأخير من تقديرهم ، مع أنه خير ما يُرجى فى الزوجة — أكد علينا النبي (ص) أن نفضل ذات الدين على غيرها ، وأن نلتفت إلى الدين قبل سواه فيمن نريدها زوجة أمينة على الشرف ، وعلى طهارة النسل ، وأن نبغى منها نسباً ، ونتخذ منها صهراً

أكد علينا النبي (ص) أن نؤثر ذات الدين ، ولو لم تكن ذات مال ، ولا جمال بارع ، ولا حسب ، والحسب هم الأهل الطيبون ، وقد بالغ فى تأكيده حتى قال : تربت يداك ، وهذا

دعاء بالفقر فى أصل معناه ، ولكنه غير مقصود وإنما يجرى على لسان العرب فى مقام التنبيه على أمر ذى بال ، وهكذا أراد منه سيد العرب وأفصحهم (ص) ؛ فإن اجتمعت هذه المزايا لزوج محظوظ فذلك فضل من الله يشكر ، وإن اجتمع مع الدين بعضها فتلك نعمة لا تكفر . أما إذا ضاع الدين فى المرأة فلا خير فى مالها ، ولا حسنها ، ولا أهلها ، وفى هذا ينطق الوحى على لسان الرسول (ص) فيقول : « لا تنكحوا النساء لحسنهن فلعله يردين ، ولا لمالهن فلعله يطغين ، وأنكحوهن للدين . ولأمة سوداء خرقاء ذات دين أفضل »

يريد النبى (ص) أن حسن المرأة — من غير دين يكون سياجاً لها — يدفع بها إلى مهابط الرذيلة . ويريد أن مالها — من غير دين تتوقر به — يحملها على الطغيان وسوء العشرة . ويريد النبى (ص) أن امرأة سوداء خرقاء — يعنى مخزومة الأذن على نحو ما كان معهوداً فى الإماء المملوكات — أو خرقاء ناقصة العقل مع احتفاظها بالدين : أفضل ممن خسرت دينها وإن بلغت من المال والجمال والحسب فوق ما يشتهى الرجال من الطامع

وليس المقصد من الدين أن تصلى المرأة أو تصوم — مثلاً — وكفى ولو كانت سيئة الطباع ؟ — لا — بل التى هذب الدين أخلاقها ، وحفظ عليها حياءها ، واستمدت من روحه وآدابه تربيتها ، وإن ورثت هذا عن بيئتها وأهلها ؛ حتى لا تكون مبتذلة جارحة لسمعته ، ولا حمقاء متعبة فى عشرته ، ولا جشعة مستقلة لخيره ، متلفتة إلى غيره

وفى حديث آخر ينصح النبى (ص) باجتناب خصال ثلاث وباجتناب من عرفت بها أو ببعضها من النساء فيقول : « لا تزوج حنانة ، ولا أنانة ، ولا منانة » ؛ والحنانة : التى عرف عنها أنها تسخط حياة زوجها ، وتحن إلى عهدها قبل التزوج منه ؛ والأنانة : التى عرفت بالأنين والشكوى مما يبدها أو من حظها ، أو من صحتها ؛ والمنانة : التى ترى لنفسها فضلاً تمتد به على الزوج . فواحدة من هذه النقائص تنغص من راحة الزوج فى عشرتها ، وتخرج بها عن الإلف والامتزاج إلى الضغينة والشحناء واتساع الخلاف ؛ وما لشىء من هذا يراد الزواج

وهكذا يطلب من الرجل أن يكون ذا دين ، ويحث النبى على تفضيل المتدين على سواه ، مع مراعاة الوسائل الأخرى التى ينشدها الإسلام فى الزوج من خَلق وخُلق ، ومن قدرة على الحياة الزوجية ، ولياقة فى الحسب

فيقول (ص) : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخُلقه فزوجوه . إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . يقصد النبى (ص) رعاية الدين والخلق ، والتنفير من الأحمق والفاسق وإن اجتمعت فيهما أسباب القبول بعد هذين . وإلا كانت حياة منكدة بين الزوجين ، وكان فساداً فى نظام الأسر ، وهدماً فى بناء المجتمع ، وشراً لا يقف عند حد ، والدين — كما نوهنا من قبل — حريص على استئصال الشر من جذوره

لم يكتف الإسلام بأن يطلب فى الرجل دينه وخلقه ، ولا بأن جعل للمرأة حق الرؤية كما جعله للرجل ، بل أعطى للمخطوبة حرية أوسع من ذلك ، ومكن لها أن تقبل فى صراحة أو ترفض فى تم وإباء . فأمر النبى (ص) أن يؤخذ إذنها فى الزوج قبل العقد له عليها ، ومنع وليها أن يكرهها على من لم ترضه زوجاً لها إذا لم يكن كفئاً لها ، وعلى ذلك جرى الفقه الإسلامى ... ولقد جاءت فتاة إلى النبى (ص) فأخبرته أن أباها زوجها وهى كارهة لمن رضيه أبوها ، فأحضر النبى (ص) أباها ، وتبين منه صحة ما شكت منه الفتاة ، فخيرها النبى (ص) فى بقاء العقد أو بفسخه لها ؟ فرضيت — بعد — بمن رضى أبوها

« لها بقية »

عبد اللطيف محمد السبكى
المدرس بكلية الشريعة

الافصاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدى
رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

عبقرية الأدب الفرنسي

صديقي موبسان

MAUPASSANT

للأستاذ محمد عبد الغني العطري

مما لا جدال فيه أن الصداقة ضرب من لوازم الحياة الضرورية التي يندر أن يستغني عنها إنسان . فهي كالغذاء للجسد أو العلاج للمريض . ولكل امرئ في هذا المجتمع صديق يأوي إليه في وقت الضيق ، أو في ساعة السرور ، فيقتسمان الفرح والترح ، ويشتركان في السراء والضراء . والحياة دون صديق تبدو جافة قاتمة ، لا أثر فيها للعواطف الروحية السامية التي تربط القلب بالقلب وتصل الروح بالروح .

هذا الضرب من الصداقة نجده بين عامة الناس ، إذ لا بد لكل فرد من صديق . ولكن فريقاً من الناس في كل بلد وقطر ، يصاحب الكتب ويصادق الأدباء ، سواء منهم من كان في عالم الفناء الآجل ، أو في عالم البقاء الأبدي . هذا الفريق يتألف من طبقة المتأدبين والأدباء ، والكتاب والشعراء ، ويضاف إلى هؤلاء طبقة القراء المولعين .

* * *

منذ سنوات عدة بدأت أشعر بميل شديد إلى أدب القصة ، وأخذت أهيم بهذا الفن الجميل هياماً عظيماً ، فصرت ألتهم ما يقع بين يدي من روايات وأقاصيص ، وأبحث عما في الصحف والمجلات الكبيرة من رائع القصص . وبينما كنت ذات يوم أقلب بصري في إحدى المجلات عثرت بقصة مترجمة عن كاتب لم أقرأ له شيئاً من قبل . فجلست أقرأ وأقرأ . . . فلما انتهيت وجدتني في عالم جديد من أدب القصة لم أعرفه قبل ذلك اليوم ، عالم كله سحر وعطر ، وفن وجمال . وكنت أشعر وأنا أقرأ تلك القصة بأنها تتدفق بالذوق الفني الرائع ، وأنها قطعة تفيض بألوان بارعة التنسيق من الحياة . ومكثت بعد ذلك برهة أستعيد حوادث القصة ، وأسلوب عرضها الأنيق ، وحوارها الطريف ؛ فما نهضت من مجلسي يومذاك إلا لأذهب إلى إحدى المكتبات وأقتني بعض أقاصيص هذا الكاتب ، الذي لم يكن سوى « جي دي موبَسّان » .

منذ ذلك اليوم أصبح موباسان صديقاً لي حبياً ، لا أجد له مؤلفاً إلا اشتريته ، ولا يُكتب عنه شيء إلا قرأته ، وهو يجزيني عن هذا الإخلاص خير الجزاء ؛ ففي كل مرة أجلس إلى قصة من قصصه أو رواية من رواياته ، يكشف لي عن نواح من فنه وعبقريته تزيد في حبي له وتضاعف من إعجابي به .

* * *

وإذا نحن حاولنا أن نكشف القناع عن سر عبقرية موبسان وفنه ، لم نستطع أن نُرجع السبب إلا إلى أمرين اثنين : الأول نبوغ فطري واستعداد طبيعي . والثاني تتلمذه على الروائي العظيم (غوستاف فلوبير) مدة سبع سنوات ، لقّنه في خلالها أصول الفن الحديث وقواعده العلمية الصحيحة ، حتى إن موبسان كتب بعد ذلك يقول : « لقد اشتغلت مع فلوبير سبع سنوات لم أنشر خلالها سطراً . وفي هذه السنوات السبع أعطاني معلومات أدبية لم أحصل عليها بعد أربعين عاماً من التجارب[1] »

والحق أن تتلمذ موبسان على فلوبير طوال هذه الأعوام صقل مواهبه وسدد خطاه ، وراضه على التأمل الطويل والتفكير الكثير في سبيل الفن وحده . وكان فلوبير خلال ذلك يأخذ بيد تلميذه في طريق السمو والإبداع ، ويقدم له خالص النصح ، وكان يقول له : « ليست الموهبة إلا صبراً طويلاً . إنها تقتضي تأملاً كافياً لكل ما يراد التعبير عنه ، مع كثير من الانتباه ، كي نصل إلى وصف منتظر لم يره أحد ولم يصفه . لا يزال في كل مكان أشياء لم تُكتشف بعد ؛ والسبب في ذلك أننا معتادون عدم استعمال نظرنا الخاص في التفكير والتأمل ، إلا ممزوجاً بما قاله الأقدمون . إن في أصغر شيء وأقله قيمة قليلاً من المجهول ، فلنبحث عنه . ولكي نصف مثلاً ناراً تتأجج أو شجرة في سهل ، يجب علينا أن نطيل الوقوف أمام تلك النار أو هذه الشجرة حتى نستطيع أن نخرج إلى الناس بوصف لا يشبه أي وصف لأية شجرة أو أية نار ، بهذا يستطيع الكاتب أن يكون مبتكراً مجدداً »

ويقول موبسان معلقاً على ذلك :

« وعند ما بسط فلوبير أمامي هذه الحقيقة التي تقول إنه لا يوجد في الكون كله ذرتان من الرمل ، أو ذبابتان أو يدان

(١) رينه دي مسنيل في كتابه « جي دي موبسان » صفحة ٩٩

أو أنفان متشابهين كل التشابه . أخذ يجبرني على التعبير في بضع جمل عن كأس أو شيء يميزه بوضوح من كل كأس وكل شيء من النوع ذاته والجنس نفسه »[1]

ولقد قسا صاحب « مدام بوفاري » على تلميذه قسوة شديدة فكان موبسان يكتب خلال تلمذته عليه كثيراً من الأقاصيص والروايات ، وينظم كثيراً من الأشعار ، ثم يعرضها على أستاذه فكان هذا يظهر له أغلاطه ويبسط له نقده ثم يُقدِّم له النصح ويتلف ما كتبه التلميذ ، وكانت هذه القسوة من أكبر العوامل في خلق عبقرية موبسان . إذ أنها كانت تدفعه إلى الإبداع والتجويد ، ولو كانت على غيره لقتلت مواهبه وقضت عليه القضاء الأخير ، ولكن النبوغ يقحم كل عقبة ، والعبقرية تجتاز كل الصعاب . وظهر بعد ذلك موبسان في عالم الأدب متسلحاً بكل ما يتطلبه فن القصة الرفيع من خيال واسع ، وموهبة فذة ، وعبقرية لا تبارى ، وكانت أولى ثماره في الأدب قصة دعاها « كرة الشحم » كتبها بمناسبة حرب السبعين وفيها ينتصر العنصر الفرنسي على العنصر الجرماني ويظهر تفوقه عليه . وقد فازت قصة موبسان هذه على خمس من القصص كتبها في الموضوع نفسه : أميل زولا وكيّار وهويسمن وآلكسي وهانيك . حتى إن فلوبير الذي لم يكن يرضى في بادئ الأمر عن نتاج موبسان الأدبي كتب يقول عنها : « إنها تحفة رائعة جداً في إنشائها وتهكمها ودقة ملاحظتها »

ثم أخذ موبسان يطل على الناس بنتاجه القصصي الرفيع الذي جمع كل ما في الحياة من مشاهد وصور يمر بها الإنسان العادي فلا يجد بها ما يهزه أو يثير مشاعره ، ولكن القصصي المبدع يرى فيها خير مادة يغذي بها فنه ويستمد منها قصصه ، وما هي إلا أعوام خمسة عشر حتى استطاع موبسان أن يقدم للناس ثماني عشرة مجموعة من الأقاصيص في كل مجموعة منها نحو من خمس عشرة قصة . كل ذلك عدا سبع روايات كبيرة وثلاث مسرحيات وثلاثة كتب في السياحة ومجموعة من الشعر

ولسنا نعجب لغزارة هذا النتاج الأدبي وكثرته ، ولكننا نعجب للسرعة والبراعة والقوة التي أبداها موبسان في مؤلفاته عامة وأقاصيصه خاصة حتى لقد سُمي بحق « زعيم الأقصوصة الأكبر »[2]

أما ترى معي أيها القارئ أن موبسان كتب ما يقارب الثلاثمائة أقصوصة وقلما تجد بينها واحدة تمت بصلة إلى غيرها من أقاصيصه ؟ أما ترى أن أقاصيصه مختلفة الأشكال متباينة الألوان لا تربطها إلى بعضها سوى رابطة واحدة هي رابطة الفن ؟

لقد توفرت لموبسان جميع العناصر الفنية والأدبية التي تؤهله لأن يكون الزعيم الأقصوصي الأول ، فزخرت مواهبه بالصور الفنية والقطع الساحرة ، فأخرجها ألواحاً رائعة التلوين بارعة التنسيق يتمشى خلال سطورها الفن وينسجم ، وتلتمع بين ثناياها العبقرية وتضيء . ليس من العجيب بعد ذلك إذا علمنا أن الروائي الفرنسي الكبير ألكسندر دوماس كتب إلى موبسان يقول ، دون تملق أو مصانعة : « إنك أنت الكاتب الوحيد الذي أنتظر كتبه برغبة ملحة وصبر نافد »[3]

كان موبسان فناناً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وفيلسوفاً في نظر كثير من الكتاب . أما أنه فنان فهذا أمر ما اختلف ولن يختلف فيه اثنان ، لأن فنه يتجلى بأوضح معانيه في جميع أقاصيصه دون استثناء . ولنأخذ أية قصة شئنا من قصصه ولننظر فيها نظرة نافذة فاحصة فماذا نجد يا ترى ؟

إننا نراه يقدم لنا صوراً ومشاهد من الحياة الواقعية ، كثيراً ما نراها في عصرنا هذا في الحياة العملية . نراه يقدمها لنا في كثير من السهولة والبساطة والوضوح ؛ ويظهر لنا أبطاله في صور وألوان هي غاية في الدقة والروعة والإبداع ، صور تميزهم من كل أبطال آخرين ، في أية قصة أخرى ، لأي كاتب كان ، وذلك تطبيقاً لوصية أستاذه فلوبير ؛ كل ذلك دون أن ينسى أن ينطقهم بلغة الوسط الذي يعيشون فيه ، والمهنة التي يزاولونها ، وحينئذ تنسى أنك تقرأ قصة لموبسان ، وتحسب نفسك أمام مشهد حقيقي تراه بناظريك ، وتسمعه بأذنيك . فإذا ما بلغت القصة نهايتها ، وصحوت من الحلم الجميل الذي هيأه لك الكاتب ، عجبت لاقتداره ودقة ملاحظته وعلو كعبه في التصور والتحليل . وهو منذ السطر الأول الذي يخطه في قصته ، حتى السطر الأخير منها ، يحاول بنجاح أن تكون رشيقة أنيقة ،

(١) مقدمة رواية « بيير وجان » لموبسان صفحة (١٦) طبعة فلاماريون لامور سنة ١٩٣٦

(١) مقدمة « فرعون الصغير » للأستاذ محمود تيمور ص ١٨

(٢) « دوسنيل » في كتابه « حي دي موباسان » ص ٢١١

متسلسلة الحوادث دون تكرار ، رائعة المفاجأة دون مغالاة أو ابتعاد عن الواقع

وموبسان يحب الحقيقة والواقع كل الحب ، والدليل على ذلك أنه نسج أقاصيصه وروايته متبعاً فى ذلك المذهب الواقعى ولم يحد عنه إلا فى أواخر حياته الأدبية . والمذهب الواقعى فى نظر أكثر الكتّاب العالميين هو أقصى غاية الفن ، لذلك نرى «أميل فاجيه» يقول فى دراسته عن « بلزاك » : « من الجدير باللاحظة حقاً أنه إذا كان المذهب الواقعى هو أقصى غاية الفن ، فليس أصعب من أن يكون المرء واقعياً »[1] . وبالرغم من ذلك ، فقد كان « موبسان » فى الطبقة الأولى من الكتاب الواقعيين . وكان يصور المجتمع الفرنسى — ولا سيما الباريسى منه — بأمانة وإخلاص ؛ وكان يرتاد البيوت المشبوهة وينغمس فيها حتى النهاية ، ثم يصورها لنا بما لا يكاد يختلف عن الحقيقة فى شىء ، بعد أن يكسوها حُللاً من فنه ، وأثواباً من عبقريته . وكثيراً ما يُطوِّف فى الأحياء والأمكنة البعيدة ، ويستلهم من غريب مشاهداته وعجيب مصادفاته مادة غزيرة لقصصه

وقد يصور فى قصصه البائسين والفقراء ، والتاعسين والأشقياء ، وغيرهم ممن طحنتهم الحياة بالهموم وغمرتهم بالآلام . ولكنه فى هذه الصور يُخفى الشفقة والرحمة ويبدو قاسىَ القلب متحجرَ الفؤاد ، لا يحاول أن يستدر الدمع بمناظر البؤس ، ولا يستنزل الرحمة بصور الشقاء ، ولا يصغى إلا إلى صوتٍ واحد هو صوت الفن . ومن هنا قال الناقدون بانعدام الطابع الإنسانى فى قصصه ، وهو فى ذلك على نقيض تام مع « ألفونس دوديه » ، فهذا يحاول أن يُشعر القارئ بالألم والحزن فى جميع أقاصيصه وروايته . فتراه يبكى ويستبكى حزناً على الأشقياء والمتألمين . بينما نرى ذاك كصانع التماثيل الفنان ، لا يهمه وهو ينحت تمثاله سوى الفن والإبداع ، لذا يضرب بأوتاله أينما شاء وحيثما تقضى الفن ، لا يدرى أآلم بضربه أم لم يؤلم ، ولكنه يعرف حق المعرفة أأصاب فى نحته أم أخطأ

وفى رأينا أن الحق هنا فى جانب « موبسان » ، لأنه يَعرض قصصه دون أى تعليق ، فهو يرينا صورة البائس دون أن يقول : « ها كم هذا البائس ! إرحموه أيها الناس وأشفقوا عليه » ؛ بل تراه يقول من طرف خفى : « ها كم قصة هذا البائس ! فأشفقوا أو لا تشفقوا » . وعلى القارئ وحده أن يكون ذا حس مرهف وشعور دقيق ، فيرحم من يستحق الرحمة ويقسو على من لا يستحقها . ولنأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك : فى إحدى أقاصيصه المسماة « والد سيمون » ، يصور لنا فتاة خطبها رجل فاستسلمت له قبل الزفاف ... ثم هجرها الخطيب ، ووضعت منه بعد مدة طفلها غير الشرعى ، ونشأ الطفل بعد ذلك يحف به العار دون أن يكون له فى ذلك ذنب أو إثم . وهنا يظهر موبسان فى قسوته المزعومة على الأشقياء والبائسين ، إذ أنه لا يكتب فى قصته كلها كلمة واحدة تبعث فى نفسك الشفقة على هذا الطفل البرئ ، أو تثير فى كوامنك الرحمة لتلك الفتاة المظلومة ؛ بل يشير إلى خجل المرأة من الناس واعتزالها إياهم ، ويصور لك ذلّ الطفل وعذابه واضطهاد رفاقه له ، لأنه على حد زعمهم « ليس له أب » . ثم يصفه لنا وهو على وشك الانتحار بعد أن شبع رفاقه من السخرية به وإسماعه لواذع الكلام ... ولا يُخلِّص الفتاة وطفلها من العار والموت سوى رجل شهم يتزوج من الأم ويتبنى الطفل

هذه قسوة موبسان المزعومة على الإنسانية ، وهى قسوة — إن صحت عليها هذه التسمية — فى موضعها ؛ لأن الفن الصحيح الخالص البعيد عن الضعف الإنسانى كثيراً ما يقضى بذلك

قلت : إن موبسان فيلسوف ، وفلسفته لا تخلو من آراء طريفة فيما يتعلق بالمرأة ، والحياة خاصة . أما رأيه فى المرأة فهو قاس شديد القسوة ؛ وهو يمت بأوثق صلة إلى رأى أبى العلاء المعرى فى العربية ، ورأى « مارسيل بريفو » بالفرنسية . فكلاهما يقول مع موبسان بأن المرأة مخلوق غادر قلما يخلص أو يعف ، وهى فى نظرهم أداة فتنة وفساد . وليس للمرأة من شاغل — فى نظر موبسان وبريفو — إلا إشباع رغباتها وميولها التى ليست سوى نار تتأجج ولهيب يستعر

المرأة ... إن موبسان يحبها من كل قلبه ، ولكنه لا يحبها زوجة وإنما يريدها خليلة ؛ لأنه يندر وجود المرأة المخلصة فى العالم ؛ وما دامت كذلك فهى لا تصلح إلا لإشباع الشهوات

وأما الحياة فله فيها فلسفة خاصة . فهو يرى « أنها سخافة ومعاناة وآلام فقط ، وليس فيها ما يشوق ويبهج[1] »

(١) «أميل فاجيه» فى كتابه «القرن التاسع عشر» ص (٤٣٢)

(١) « قصص اجتماعية » ترجمها الأستاذ محمد عبد الله عنان ص ١٧٢

ويغلب على ظننا أن هـذا الرأى لم يأخذ به موبسان إلا فى أواخر حياته ، أى عند ما تناوشته الأدواء وتكاثرت على جسمه العلل ؛ فداخله اليأس والقنوط ، لأنه كان قبل ذلك زير غوان لا يرتوى ، وكان مدمناً على الشراب والمخدرات ، مقبلاً على الحياة ، متمتعاً بكل لذائذها ، غارقاً فى مفاسدها . وهذه كلها أشياء « تشوق وتبهج » لا يأتيها من كان يائساً من الحياة محتقراً لها معرضاً عنها . ويلتقى موبسان ثانية مع المرى فى رأيه فى الحياة ولـكن الأول يطعن فيها وهو مقبل عليها يتمتع بلذائذها ، بينما الآخر يكره الحياة ويعيش بعيداً عنها وعن جميع لذائذها

وعلى أى حال فقد اشتد يأس كاتبنا من الحياة وزاد كرهه لها عند ما تقلبت عليه الأمراض ، وانتهت به إلى أسوأ عاقبة ، وأعنى بذلك الجنون ... نعم ، لقد جُنّ الرجل فى أواخر حياته وكان السبب فى ذلك شدة إخلاصه لأدبه وفنه ، واعتقاده بأنه ميت لا محالة ، بينما كانت نفسه لا تزال تزخر بشتى الصور الفنية التى يود أن ينسجها أقاصيص رائعة الحسن موفورة الجمال . فكان لتنفيذ هـذه الرغبة يعمل فى يومه مدة ثمانى عشرة ساعة — كما يقول زوبير مونتيه فى كتابه عن أسباب جنون موبسان — واضطر الرجل إلى إجهاد ذهنه إجهاداً متواصلاً فى سبيل تنفيذ مشروعه ونسج أقاصيصه التى خشى أن يأتى عليها الموت فتدفن معه فى اللحد وهى أجنّة لم تولد . ولما أدركه الجنون المطبق صار يرى فى الناس أبطال قصصه الذين صنعهم خياله وصورهم براعه . وأخذ يسىء إلى من رسمه بقلمه شريراً منهم ، فاضطر ذووه إلى نقله إلى مصح للأمراض العقلية ، ولـكنه أعيد بعد مدة إلى باريس حيث قضى وهو فى قمة المجد وأوج الصبا وأبعد الصيت . مات موبسان فأنكره قومه فى مماته كما أنكروه فى حياته ، ولم ينتبهوا إلى فنه الرائع وعبقريته الفذة إلا فى الأعوام الأخيرة حيث احتفلت فرنسة بتخليد ذكراه عام ١٩٢٥ ، وأقامت له فى مسقط رأسه تمثالاً يليق بعبقريته ونبوغه

هذه صفحة موجزة من أدب الرجل الذى عاش ومات من أجل أدبه وفنه ، والذى جعلت منه صديقاً لى وفياً . فهل ثمة من يلوم على إكبارى لهذا الصديق الذى عانقته إلاهة الفن وهدهدته ، ثم سقته من كأس الخلود والبقاء ، وجعلت منه كاتباً عبقرياً تباهى به القرون وتفخر به الأجيال

(دمشق) عبد الغنى العطرى

دار الكتب الأهلية

عمارة سينما أوبرا صيدناوى ابراهيم باشا بمصر تقدم

١٠	سلطان الظلام	للأستاذ توفيق الحكيم
٨	مكتوب على الجبين	للأستاذ محمود تيمور
٦	فرعون الصغير	» » »
٥	قلب خائنة	» » »
٥	الوثبة الأولى	» » »
٤	نداء المجهول	» » »
٤	أبو على عامل أرتست	» » »
٤	الشيخ عفا الله	» » »
٤	صور جديدة من الأدب العربى	للأستاذ كامل كيلانى
١٥	الأسماء والصفات للبيهقى	
٨	تاريخ خالد بن الوليد	
٨	صور إسلامية	للأستاذ المشهدى جزءان
٣	أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى للمرحوم عبد العزيز جاويش	
٣	الميراث فى الشريعة الإسلامية	
٣	بولين (صفحات خالدة فى خضوع الكبرياء للحب)	
٣	الروائح العطرية والصناعات الزراعية للأستاذ فؤاد مرقس	
٣	أسرار النشالين تأليف رئيس فرقة البوليس السرى	
٢	السعادة الزوجية وضع زوجة	
٢	إتجاهات العصر الجديد فى مصر للأستاذ المنجورى	
٥	المهاتما غاندى للأستاذ فتحى رضوان المحامى	
٥	العظماء للفيلسوف اليونانى بلوطرخوس	
٤	رسائل العلامة رشيد الدين الوطواط الأدبية جزءان	
٢٠	علم الاقتصاد لخليل بك مطران خمسة أجزاء	
٢٠٠	معجم الأدباء لياقوت فى عشرين جزءاً	
٥٠٠	تاريخ ابن خلدون فى سبعة مجلدات	

يضاف على هذه الأسعار ٢٠ ٪ مصاريف إرسال

(مصنع تجليد الدار)

يقدم ٤٠ نوعا من التجليد بـ ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ١٥ قرشا

والدار تشترى كتباً من جميع اللغات

جميع المراسلات ترسل باسم مديرها حضرة خليل تيفور ٤٩٥٦١